٢٥ عاماً على رحيل فاتح المدرّس

شكّل علامة فارقة في عالم الفن التشكيلي السوري المعاصر..
واختزل حقبة طويلة من التجربة اللونية والثقافية

| وائل العدس

لم يكن شخصية ثقافية بارزة على صعيد الفن التشكيلي فحسب، وإنما امتد تأثيره ليشمل صعداً ثقافية متعددة ومتنوعة، كالأدب والموسيقا وفلسفة اللون والضوء، وساهم في الدفع بالمشهد الثقافي بشكل متكامل نحو التجدد من ناحية، والتجذر في بيئته من ناحية أخرى، وهو أحد الفنانين العرب القلائل الذين بيعت لوحاتهم في مزادات الفن العالمية.

إنه الفنان التشكيلي والقاص والشاعر الراحل فاتح المدرّس الذي اكتسبت لوحاته مكانتها من شخصية مبدعها المفتونة بروح المغامرة في اقتحام عالم الذاكرة وتحرير مكوناتها الدفينة بأداة فنية متوهجة، وبذلك استحق شهرته الواسعة ومكانته المرموقة في التشكيل السوري والعربي، فلا غرابة أن تصدر عن تجربته مجموعة من الكتب المصورة وعشرات الدراسات التي تعرض نتاجه، وتتحدث عن تجربته المتفردة، وقد قال عنه أدونيس: «لا نعت يليق بإبداع فاتح المدرّس، ويفصح عنه إلا الأسطوري».

كتب القصة والشعر، ومارس تقنية اللون على الكلمات، مستفيداً من عفويته ووافعيته في حرفية النص الأدبي، حيث الطبيعة والأسطورة ترافقانه على الدوام، وشكل علامة فارقة في عالم الفن التشكيلي السوري المعاصر من خلال مدرسته الفنية التي جمعت بين عملية الغرب وروحانية الشرق وغاصت في تفاصيل البيئة والحياة السورية.

بدأ في أربعينيات القرن الماضي فناناً سريالياً، يشرح كل لوحة من أعماله بتعليق فلسفي أو أدبي، وهنا برز الجانب الأدبي في شخصيته المتوازنة مع الجانب الفني. استمد ألوانه من حقول الشمال في حلب، وحظيت القرية والبيت العتيق على مكانة متقدمة في أعماله، فظهرت شديدة الاتصال بالطبيعة على اختلاف ألوانها الفطرية.

من أهم صفات لوحاته التجريد والتشخيص، وعدم الابتعاد عن الروح الشرقية، وعلى الرغم من الدراسة في أكاديميات غربية إلا أن الروح التي رسم بها بقيت تحمل عبقاً أصيلاً.

اختزل المدرّس حقبة طويلة من التجربة اللونية والثقافية حتى أصبح علامة فارقة في الفن الحديث، ذلك أن الرجل رسم التاريخ.. وتمسك بالجغرافيا معوّناً حالة نادرة من الفرادة والتميز تستحق الوقوف والتأمل طويلاً.

النشأة والتعليم

ولد فاتح المدرّس عام ١٩٢٢ في ريف حلب وسط بيئة فلاحية، وقد عاش مع والدته طفولة شقية محرومة متنقلاً بين عدة قرى عند أخواله بعد وفاة والده، ما ترك أثره في وجدانه وسلوكه الاجتماعي ونتاجه الفني والأدبي.

غادر حياة الريف وهو في الثامنة من عمره، ليقيم عند أعمامه بحي القرافرة بحلب، لكنه فضّل لاحقاً الإقامة مع والدته في أحد البيوت البسيطة في حي باب النصر، وحين دخل المدرسة الابتدائية اكتشف أستاذ الرسم شريف بيرقدار موهبة الرسم لديه، واستيقظت ميوله نحو الموسيقا والشعر والقصة والرحلات.

وفي مدرسة التجهيز الأولى تعرّف إلى أساتذة الفنون منيب النقشبندي وغالب سالم ووهبي الحريري، وأخذ عنهم المبادئ المدرسية لفن الرسم والثقافة الفنية.

وفي مطلع الأربعينيات من القرن الماضي، غادر حلب إلى لبنان ليتابع دراسته في الكلية الأميركية حيث درس اللغة الإنكليزية التي كانت وسيلته للاطلاع على الأدب والفن العالمي، بما في ذلك الاتجاهات الفنية الحديثة، وأخذ يتعرف على عدد من المثقفين اللبنانيين.

وحين عاد إلى حلب عمل مدرّساً للغة الإنكليزية والتربية الفنية في ثانويات حلب، وبدأت مشاركاته الفنية في الرسم تظهر إلى جانب عدد من الفنانين الرواد، كما ظهرت مساهماته الأدبية في الشعر والقصة التي كان ينشرها في الصحف والمجلات السورية.

كما تعززت علاقته بعدد من الشعراء والأدباء أمثال عمر أبو ريشة وأدونيس والمخرج سليم قطاية والناقد سلمان قطاية.

تابع المدرّس دراسته العليا في أكاديمية الفنون الجميلة في باريس، ونال الدكتوراه عام ١٩٧٧، وعُين أستاذاً للدراسات العليا في كلية الفنون الجميلة بدمشق عام ١٩٧٧، وكان عضواً مؤسساً في نقابة الفنون الجميلة في سورية، ثم رئيساً لها خلال أحد عشر عاماً.

الإبداع الفني

كانت لوحاته السريالية المعروضة في واجهات المكتبات في شارع بارون بحلب تستوقف المارة لأنها تحمل مفاهيم جديدة لم تكن معروفة آنذاك، وفي عام ١٩٥٢ شارك في المعرض الرسمي الذي أقيم في دمشق إلى جانب أبرز الفنانين السوريين، ونال الجائزة الأولى في التصوير عن لوحته «كفر جنة» التي اعتبرها النقاد وقتئذ في طليعة الأعمال التصويرية في الفن السوري المعاصر.

وفي عام ١٩٥٤ وضع المدرّس مؤلفاً من ثلاثة أجزاء عرض فيه «موجز تاريخ الفنون الجميلة» وكان ذلك مقدمة لإفادته للدراسة الفنية في أكاديمية روما عام ١٩٥٦، وهناك التقى بالمفكر الفرنسي جان بول سارتر الذي ترجم له بعض قصائده إلى الفرنسية، كما التقى عدداً من المثقفين العرب والغربيين.

عاد إلى دمشق ليتخذه مرسماً وسط المدينة، ويُعين معيداً في كلية الفنون الجميلة بدمشق فور إحداثها عام ١٩٦١، وقد كان لقدومه إلى الكلية وقع خاص لدى تلاميذها الذين رؤوا فيه فاتحاً لعهد جديد في الفن السوري، حيث أخذ يحرر أذهانهم من المفاهيم التقليدية ويفتح أمامهم آفاقاً جديدة، تعتمد الحرية في التعبير واستخدام الأدوات والوسائل المستحدثة والمبتكرة، ما ترك أثره الواضح في جيل الفنانين الذين اختطوا لأنفسهم اتجاهات جديدة في المسار الإبداعي.

أما مرسمه فقد لعب دوراً مهماً في إغناء تجربته وغزارة إنتاجه وذيوع شهرته من خلال احتكاكه بالأوساط الثقافية والإعلامية، فقد كان خلوة للفنان يفرغ فيها ما تجود به قريحته، وسرداباً يصل بين عالم الوعي الخارجي وعوالم الإبداع المدهشة بما فيه من ملامح وأدوات ومجالس كانت موئلاً للعديد من الفنانين والأدباء والمثقفين والمريدين الذين سحرتهم عوالم المدرّس وطقوسه، وجرأته في فنه وحديثه.

أقام المدرس عشرات المعارض الفردية في سورية والوطن العربي والعالم، منها معرض في روما إلى جانب الفنانين براك ميرو وشيندر وزادكين وبيكاسو وبيومايستر عام ١٩٧٢، وأقام كذلك معرضاً مشتركاً مع الفنان السوري لؤي كيالي في متحف حلب عام ١٩٧٦، واقتنيت أعماله من قبل عدد من الشخصيات العربية والعالمية.

أعماله الأدبية

حفلت حياته بعدد من الأنشطة الأدبية إلى جانب نتاجه التصويري الغزير، ففي عام ١٩٦٢ أصدر ديوان «القمر الشرقي على شاطئ الغرب» باللغتين العربية والفرنسية، كما أخرجت السينما السورية ثلاث قصص له في ثلاثية بعنوان «العار» عام ١٩٧٣، وصدرت له مجموعة قصصية بعنوان «عود النعنع» عام، ١٩٨١ وديوان «الزمن السبي» مع صديقه حسين راجي عام ١٩٨٥.

وقد كانت كتاباته الشعرية تميل إلى السريالية، في حين كانت قصصه تحمل ملامح الواقعية النقدية.

نتاجه التصويري

كان نتاجه التصويري يتأرجح بين التجريد والتشخيص، فاللوحة عند المدرّس ترجمة آنية لمجمل معارفه وهمومه وهواجسه، وهي تخرج دفعة واحدة عبر شحنة انفعالية قوية، تتزاحم فيها الصور، وتتكاثف الرؤى، وتنهمر العواطف والمعارف مشكلة شلالاً من الأشكال والألوان التي تفصح عن موقف إنساني ممزوج غالباً بعناصر الطبيعة والحياة. وقد شكّلت البيئة الريفية التي عاشها في طفولته رافداً مهماً في مسيرته الإبداعية، بما في ذلك من مفاهيم شرقية وعقائد، وأساطير محلية ومفاهيم اجتماعية وإنسانية، باتت تشكل مخزوناً كبيراً في ذاكرته التي تفاعلت مع كل الثقافات المحلية والعالمية.

كما شكّلت القضايا الإنسانية والوطنية محاور إنتاجه، بما في ذلك القضية الفلسطينية ونكسة حزيران والحرب الأهلية في لبنان وغيرها من الأحداث القومية.

جوائز وتكريمات

نال الفنان الراحل الكثير من الجوائز والتكريمات، لعل أهمها وسام الاستحقاق السوري عام ٢٠٠٥.

ومن الجوائز التي نالها أيضاً نذكر: الجائزة الأولى لأكاديمية روما عام ١٩٦٠، الميدالية الذهبية لمجلس الشيوخ الإيطالي عام ١٩٦٢، جائزة شرف بينالي في ساوباولو في البرازيل عام ١٩٦٣، جائزة الشراع الذهبي للفنانين العرب في الكويت عام ١٩٧٧، جائزة الدولة للفنون الجميلة في الأردن عام ١٩٩٢.

طابع واحتفالية

خلال عام ٢٠٢٢، أصدرت المؤسسة السورية للبريد طابعاً بريدياً تذكارياً بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد الفنان التشكيلي فاتح المدرس.

وفي العام نفسه، احتفل الموسم الخاص لأيام الفن التشكيلي السوري في دار الأسد للثقافة والفنون، بمئوية الفنان الراحل تحت شعار «سبعون عاماً من الحداثة»، وهو إشارة إلى مرور سبعين عاماً على فوز لوحته «كفر جنة» بالجائزة الأولى في المعرض السنوي الثالث عام ١٩٥٢، والتي تم اعتبارها بدايةً لتاريخ الحداثة في الفن التشكيلي السوري.

كما أقيمت حوله ندوة فنية وثقافية في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق شارك فيها الفنان التشكيلي الراحل د.عبد الكريم فرح والناقد سعد القاسم والأديب د.إسماعيل مروة، وقد صدرت أبحاث الندوة ضمن كتب ندوة الأربعاء الشهرية، إضافة إلى ألبوم ملون توّلى إعداده والإشراف عليه سعد القاسم.

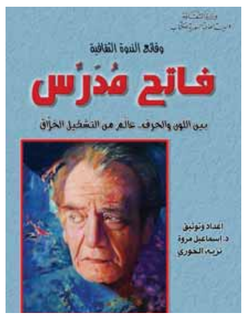

الثقافة تؤلف بين القلوب في (ملتقى الثقافتين العربية – الكردية) في بغداد

الهوية الوطنية الجامعة وتجاوز كل المصطلحات السلبية

| الوطن

برعاية وحضور رئيس الجمهورية العراقية الدكتور عبد اللطيف جمال رشيد وبمشاركة واسعة من شخصيات سياسية وأكاديمية وأدبية عراقية وعربية وأجنبية، افتتحت في العاصمة العراقية بغداد السبت ٢٩ حزيران ٢٠٢٤، فعاليات مؤتمر المركز الثقافي العربي الكردي تحت عنوان (ملتقى الثقافتين العربية – الكردية)، وذلك بهدف تعميق الحوار وتعزيز الانتماء وتعميق التقارب بين مكونات شعوب المنطقة.

أبناء الوطن الواحد

وهو ما أكد عليه وزير الثقافة والسياحة والآثار العراقي الدكتور أحمد فكاك البدراني في كلمة افتتاح المؤتمر والتي أكد فيها أن لغة الثقافة هي اللغة التي تؤلف بين قلوب أبناء الوطن الواحد وتجمعهم على كلمة واحدة وقرار واحد، موضحاً أن الثقافة تستطيع أن تحقق ما لا يحققه سواها لضمان المصالح السياسية والاقتصادية.

التعايش الإيجابي

ثم ألقى رئيس الجمهورية العراقية الدكتور عبد اللطيف جمال رشيد كلمة رحب فيها بالحضور، وأكد ضرورة العمل وتضافر الجهود لتعزيز المشتركات الثقافية والتاريخية والتراثية، وتنميتها وتطويرها بما يخدم حياة التعايش الإيجابي بين أبناء المنطقة جميعاً.

واستذكر رئيس الجمهورية الأدوار الثقافية المهمة لعدد من المثقفين الكرد ممن عاشوا في بلدان عربية مثل مصر وسورية ولبنان والأردن وغيرها وأسهموا بإثراء الثقافة والفنون العربية، مشيراً إلى ضرورة الاستفادة من تجارب التاريخ وتقدير الأدوار المهمة التي قدمتها شخصيات في جانب الثقافة والمجالات المعرفية الأخرى.

الانتماء الوطني

بعد ذلك ألقيت كلمة الأمين العام لمنتدى الفكر العربي وكلمة الأمين العام لمجموعة السلام العربي العربي وكلمة الفكر والأكاديمي للدكتور عبد الحسين شعبان الذي أدار الجلسة الحوارية الأولى بعنوان: (دور الثقافة العربية الكردية في تنمية واستدامة التعايش السلمي وتعزيز الانتماء الوطني).

المواطنة والدفاع عن الأرض

وشارك فيها رئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية الدكتور محمد الحوراني الذي تحدث عن دور الثقافة العربية الكردية تاريخياً في تعزيز الانتماء الوطني وترسيخ قيم المواطنة والدفاع عن الأرض ضد أشكال الاستعمار كافة، مستشهداً بشخصيات كان ومازال لها حضورها في عمق الوجدان السوري دون النظر إلى قوميتها مثل الشهيد يوسف العظمة وسليمان الحلبي والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وسواهم من أعلام الفكر والأدب والنضال الوطني مؤكداً أهمية ما طرحه الرئيس السوري بشار الأسد بخصوص «العروبة الحضارية» وكيف يمكننا من خلالها تجاوز كثير من المصطلحات السلبية، كما أكد ضرورة التلاقي بين ما يطرح في هذا المؤتمر وما يتم الاشتغال عليه في سورية منذ فترة بخصوص الهوية الوطنية الجامعة، كما شارك فيها وزير الثقافة الأسبق السيد فرياد راوندوزي والوزير السابق في حكومة الدكتور محمد إحسان ورئيس الشبكة العربية للتسامح الدكتور اياد البرغوثي ورئيس الهيئة الأكاديمية الكردية السيد حمه زياد مولود ورئيس مركز شرقيات للبحوث الدكتور محمد زاهد جول، وناقش المشاركون خلالها مجموعة أفكار تؤسس لخريطة طريق تستند إلى الثقافة في تجاوز الأزمات وتقوية النسيج المجتمعي والتخطيط لمستقبل واعد.

> الحوراني: شخصيات في عمق الوجدان السوري من دون النظر إلى قوميتها

الشخصيات الثقافية

أما الجلسة الحوارية الثانية فكانت بعنوان (دور المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية والمجتمع المدني في تنمية أواصر الثقافة العربية الكردية) أدارها وزير الثقافة الأسبق السيد فرياد راوندوزي بمشاركة وزير النفط السابق الدكتور إبراهيم بحر العلوم ووزيرة الخارجية السودانية السابقة الدكتورة مريم الصادق المهدي وعميد كلية العلوم السياسية في جامعة بغداد الدكتور عادل البديوي والكاتب والصحفي السيد ساطع راجي والباحثة في علم الاجتماع الدكتورة رفيف صيداوي ووزير التربية الأسبق الدكتورة سهى العلي بك، وأشار المشاركون في كلماتهم إلى ضرورة اهتمام المؤسسات الحكومية على اختلاف وظائفها بالعمل على ترسيخ الأخوة العربية الكردية من خلال عملها ونشاطاتها فضلاً عن تشريع القوانين بالاعتماد على المصلحة العامة دون هضم حق أي طرف.

وكان ختام الملتقى في الجلسة الثالثة والأخيرة تحت عنوان (الشخصيات الثقافية العربية والكردية وتأثيرها في انتاج ثقافة إنسانية وطنية) والتي أدار نقاشاتها أمين عام الشؤون الثقافية في اتحاد الأدباء السيد منذر عبد الحر وشارك فيها الأستاذ في جامعة الموصل الدكتور علي أحمد خضر والمؤلف والباحث الاجتماعي السيد فاضل كريم ورئيس قسم الدراسات الإقليمية والدولية في جامعة بغداد الدكتور مفيد الزيدي والخبيرة في شؤون المجتمع المدني السيدة لبنى بن عبد الله والأكاديمية والناشطة في الشأن السياسي الدكتورة ليلى الصائغ والتدريسي في كلية الأمام الأعظم الدكتور صالح خلف الأصيفر، وناقشت الجلسة عطاء العديد من الأسماء العربية والكردية التي كان لها تأثير متميز على طبيعة العلاقات العربية الكردية وعلى ماضي وحاضر ومستقبل البلد، حيث تم التأكيد على ضرورة التعريف بتلك الشخصيات ونشر مفاهيمها الوطنية وتعريف الأجيال الناشئة بالأدوار الإيجابية لتلك الشخصيات في بناء الوطن وتحقيق تطلعات شعبه.

واختتمت جلسات المؤتمر الذي أقامه المركز الثقافي العربي الكردي بكلمة وزير الثقافة والسياحة والآثار الدكتور أحمد فكاك البدراني والتي أعرب فيها عن تقديره وتثمينه لجهود رئيس الجمهورية في إثراء الثقافة العراقية والحرص على تقوية العلاقات الاجتماعية والروابط الوطنية بين جميع المكونات وبما يؤمن المستقبل الواعد والزاهر للعراق ودول المنطقة، شاكراً جميع المشاركين في هذا المؤتمر على طروحاتهم وأفكارهم ودراساتهم التي تصب في خدمة الثقافة والمثقفين وترسخ لمجتمعات ديمقراطية واعية وأوطان آمنة ومستقرة.

برجك اليوم 07/02

نجلاء قباني

الحمل

الحظ يحالفك للنقاش في شؤونك المادية، وقد تحرز النجاح في إيجاد بعض الحلول وقد تلاقي الدعم أو التمويل لتحسين وضعك المالي أو تقبض مستحقات مؤجلة.

عاطفياً: قد تكون هذه الفترة للارتباط بامتياز أو لخطوبة أو لشراء عقار فأمورك جيدة جداً.

الثور

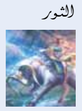

الحظوظ جيدة جداً وأبواب الحياة مفتوحة إذا بذلت جهداً لتغير حياتك ولم تخف، غامر وخذ قرارات ولا تعتبر أن التغيير مخاطرة فهو ليس كذلك إذا درست ما تفعل جيداً.

عاطفياً: اليوم لمعنويات مرتفعة وهذا يشكل لك حافزاً جيداً لكل جديد أو للإنجاز في العمل.

الجوزاء

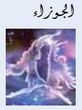

أنت تعطي دروساً في الصبر فكن تلميذاً جيداً لدروسك فاسمع كثيراً وتكلم قليلاً فقد تكون غيوراً أكثر من اللازم أو عصبياً وكأنك غير راض عن كل ما يحصل.

عاطفياً: أحذرك من الغضب أو التصرف تحت وطأة غيرك وتجنب الصراع مع من تحب.

السرطان

أنت محب وعطوف وموضع اهتمام من حولك وهاتفك لا يتوقف عن الرنين فالفرصة متاحة للتعرف على الأشخاص الغرباء في مكان عملك أو في نشاطاتك الرياضية أو في أثناء سفرك أو اجتماعياً.

عاطفياً: اليوم لدعوات وإعجاب وقد تدعم علاقاتك القديمة وترسيخها.

الأسد

تسمع انتقاداً يزعجك ولكن تأكد أنه نابع عن حسد من نجاحك وإنجازك- اتهامات وربما تتكيف مع بعض المستجدات التي حصلت معك مؤخراً، أنصحك بعدم تضخيم الأمور.

عاطفياً: لا تتطرق إلى بعض المشاكل السابقة فليس اليوم للحلول بل للتمسك بالهدوء.

العذراء

حولك الكثير من التضامن مع مشاريعك أو مع تطلعاتك الطموحة من رؤسائك في العمل أومن زملائك الذين يحترمون وجهة نظرك والأهم أنك تشعر بمحبتهم الحقيقية.

عاطفياً: أنت تجذب العيون إليك وتمارس سحرك المعتاد وقد تلتقي بشخص يهز قلبك لو كنت خالياً.

الميزان

تستقطب الناس ليمنحوك الحب والتشجيع والمساعدات لتحسن وضعك العاطفي والأسري فابحث عن مساعدات ممن حولك واستفد من زيارات لطيفة أو علاقات جيدة ممن يستطيع أن يساعدك.

عاطفياً: قد تفرح لتغييرات عاطفية عائلية إيجابية وقد تكون أمورك الشخصية المتعبة سببها ارتباط أو سفر.

العقرب

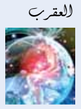

اليوم للتعب ما يجعلني أنبهك على أمورك المهنية فقد تضايقك بعض الاستفزازات فلا تستنفد كامل طاقتك في مشاكل صغيرة وامنح نفسك الهدوء وفكر في قراراتك.

عاطفياً: قلل من أخطار الانفعالات أو من المشادات الكلامية والمشاكل المفتعلة.

القوس

المشكلة اليوم تكمن في عدم رضاك عما يحيط بك أو إحساسك الدائم أنك تعمل كثيراً من دون أن يقدر عملك وإنجازك وكأنك لا تنال حقك، فلا تحمل نفسك مسؤوليات إضافية.

عاطفياً: ربما تصل إلى ارتباط أو خطبة وقد تفرح لأمور أسرية أو ولادة في محيطك.

الجدي

تسعدك العروض والاهتمام من المحيط وقد تشعر بالتفاؤل في أمورك العملية، ما يجعلك واثقاً من نفسك ومن قراراتك وقد تأخذ هذه الفترة حقك وقد يكون شهراً لرد اعتبارك في العمل أو إلى اعتزازك بمواهبك وإنجازاتك فهي مصدر فخرك. عاطفياً: تستطيع الاعتماد على صداقاتك وعلاقاتك بمن تحب فالأخبار سعيدة والأمور هادئة.

الدلو

لا تجعل العمل بتوتره يؤثر في أمورك العاطفية فالحبيب دائماً ملجأ وصدر حنون للبعد عن توترات وضغوط العمل وليس العكس ولا تكن صارماً في قراراتك.

عاطفياً: انتبه من الحمم التي تصبها على من حولك حين تكون نزقاً لأنها ستؤذي علاقاتك.

الحوت

أنت ستكسب أي قضية تريدها ومرحك اليوم يجذب الآخرين لك وخاصة الشريك، وخاصة أنك سريع التأقلم وتتغير بسرعة وفق الظروف وذهنك يعمل بطريقة صحيحة. عاطفياً: اختياراتك القادمة تسعدك وقد تشعر بالحب يتدفق حولك ما يشكل حصانة لك كفئة بالنفس وفرح من محبة من حولك.